قصّة قصيرة

أبـو متعـب... طـال عمرك

طالب الرفاعي

(١) فتحت الإشارة

كان أبو متعب جالساً، عندما شاهد رئيس القسم قادماً. نفض عنه ضيقه، وطول انتظاره، وهبَّ واقفاً. «.. هذا هو. ها قد وصل أخيراً..» أسرَّ لنفسه، وبطريقة آليّة اعتادها راح يبسمل. «.. يا رب. يا ميسّر الأمور، يا الله..

وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم..»

دخل رئيس القسم إلى غرفة مكتبه، دون أن يلتفت إليه، فدلف وراءه.

ما إن استوى الأول خلف مكتبه حتى بادره رافعاً يده اليمنى، حيث استقرب سبابته بشكل مائل قرب صدغه:

ـ صبّحك الله بالخير يا بو عصام!

رفع رئيس القسم نظره إليه. استغرب منه أن يخاطبه بطريقته، وكما لو كان بينهما معرفة سابقة.

ـ أهلاً.

ردّ أبو عصام باقتضاب. لم ترقه هيئة أبي متعب، ولا طريقة دخوله عليه، ولا تحيّته العسكرية:

ـ أنا المراسل الجديد طال عمرك!

ـ نعم؟!

صدرت عن أبي عصام، كأنه أراد التأكّد ممّا يسمع. بينما راح يتفرَّس بأبي متعب. وقد زاد انزعاجه منه:

ـ المراسل الجديد.

حاول أبو عصام إخفاء ردّة فعله، والاحتفاظ بهدوئه ريثما يتأكّد من الموضوع:

ـ مَنْ الذي بعثك إلى هنا؟!

ـ الإدارة.

ـ أي إدارة؟

ـ المدير.

ضايق أبا عصام الأسلوب الذي يردّ به عليه أبو متعب:

ـ أي مدير؟!

سأل أبو عصام وقد بدأ ينفد صبره:

ـ العم بو سعود طال عمره وعمرك.

كان أبو متعب رجلاً مسنّاً، ولكنه يبدو محتفظاً بقوّته. جسمه مليء ولهذا يبدو أقرب إلى القصر منه للطول. لحيته صغيرة مخضّبة بالحنّاء. نظراته عميقة يصعب التنبّؤ بما خلفها. شاربه خفيف شائب محفوف. وأكثر ما يلفت النظر في وجهه تلك الأسنان الصفراء المتناثرة بلا نظام، وحركة لسانه الذي لا يسكن. مع تلك المسبحة التي لا تفارق يده، والتي لا تنفكّ حبّاتها تتحرّك بهدوء بين أصابعه، دونما صوت:

ـ انتظر في الخارج.

أشار أبو عصام بيده لأبي متعب. تحرّك الآخر بخطوات بطيئة، وقبل أن يخرج استوقفه أبو عصام:

ـ ما اسمك؟!

ـ عايض متعب..

هزَّ أبو عصام رأسه، فأضاف الرجل:

ـ أبو متعب طال عمرك.

ـ حسناً.

انطلق صوت أبو عصام بنفاد صبر، يستعجل أبا متعب الخروج.

* * *

ـ نعم هو المراسل الجديد.

جاء ردّ الإدارة على أبي عصام. فاستغرب، وتساءل «.. كيف تمَّ ذلك؟!»

وضع سمّاعة التليفون، ودمدم مستخفّاً يحدّث نفسه «.. بو متعب!!»

سرح لبرهة، وبعدها دفع بكرسيه الدوّار إلى الخلف و«سأُقابل بو سعود.. القسم بحاجة لمندوب ومراسل في نفس الوقت. وبعد

كل كتبي، وطلباتي المتكرِّرة، يأتي أبو بطيخ!»

فتح باب غرفته، ففاجأه أبو متعب يهبّ في وجهه واقفاً. يرفع يده بتحيّته العسكرية ذاتها. ويخاطبه أبو عصام مشيراً إليه:

ـ اجلس! انتظر!

* * *

بيّن أبو عصام لمدير الإدارة أن القسم بحاجة ماسَّة لمندوب ومراسل في شخص موظف واحد. وأن هذا الرجل المسنّ، بهيئته وأسنانه المنثرة، ومسبحته، لا يصلح، ولن يستطيع القيام بهذا العمل. ولكن مدير الإدارة قاطعه:

ـ دع عنك هيئته وأسنانه!

ـ ولكن..

ـ الرجل سيعمل مراسلاً وليس عارض أزياء.

ظلّ أبو عصام ينظر لمدير الإدارة، وصوت الأخير:

ـ لنعطه فرصته...

وينهي المدير المقابلة، خاطب سكرتيرته:

ـ هيًّا! جهّزي ملفّ الاجتماع!

* * *

مرَّ أسبوعان كان أبو متعب خلالهما حاضراً طوال الوقت، وقائماً على خدمة الجميع. ولكن شيئاً ما بدأ يلفت نظر أبي عصام.

شابّ خمّن لأول وهلة بأنه هندي أو باكستاني. أضحى يظهر بصحبة أبي متعب أينما ذهب. يجلسان طوال الوقت يتهامسان، بينما تلوح على أبي متعب ملامح الجدّ وهو يحاول إيصال فكرة ما للشابّ. وإذا ما أُرسل أبومتعب إلى أية جهة، تبعه الآخر كظلّه.

في أحد الأيام طلب أبو عصام أبا متعب. دخل عليه بخطواته الوئيدة، وتحيته العسكرية. استفسر منه عن الشاب الذي يبقى طوال الوقت جالساً إلى جواره. اضطرب أبو متعب قليلاً، بعدها خرجت كلماته:

ـ يساعدني، طال عمرك.

هزَّ أبو عصام رأسه، رافعاً حاجبيه و:

ـ هذا لا يصحّ.

ـ لماذا طال عمرك؟!

قالها أبو متعب بينما كان ينظر في عيني أبي عصام مباشرة. ظلاًّ لبرهة على وضعهما هذا. بينما كان أبو عصام يحدِّث نفسه «.. ابن الكلب، عجوز الحيلة.. يتصنّع الجهل والطيبة أمامي..»

ـ لا أُريد أن يحضر هذا الشاب معك غداً!

ـ اسمه إقبال طال عمرك .. مسلم باكستاني..

ـ هيًّا تفضّل!!

أشار أبو عصام لأبي متعب ناحية الباب. ظلّت نظرات أبي متعب باردة. ومن بعيد خرج صوته:

ـ حاضر طال عمرك.

ببرود رفع أبو متعب يده اليمنى حتى لامست سبابته صدغه. أدّى تحيّته العسكرية و:

ـ السلام عليكم.

ولحظة انغلق الباب خلفه أفلت أبو عصام متضايقاً:

ـ إلى جهنم!

* * *

في صباح اليوم التالي، وبينما كان أبو عصام يهمّ بدخول غرفة مكتبه، شاهد أبا متعب وبجانبه إقبال جالسيْن كعادتهما يتبادلان الحديث.

«.. ابن الكلب!» أفلت يحدِّث نفسه. «عجوز جهنم..» ومن مكانه أشار لأبي متعب، ودخل منفعلاً لغرفته.

على طريقته دخل أبو متعب بهدوء و:

ـ صبّحك الله بالخير يا طويل العمر.

أدّى تحيته العسكرية ووقف وكأنّ شيئاً لم يكن:

ـ لماذا أحضرت إقبال معك؟!

ـ يساعدني طال عمرك!

ـ ليغادر حالاً!

ارتفع صوت أبي عصام محتدّاً.

ـ لا تزعج نفسك يا طويل العمر. لن يكون إلاَّ ما تُريد..

ـ تفضَّل اصرفه فوراً.

ظلَّ أبو متعب برهة في مكانه، وكأنّه يتعمَّد أن يؤجّج غضب أبي عصام الذي ارتفع صراخه.

ـ هيًّا! تحرَّك! ألا تسمع؟!

ـ حاضر.. السلام عليكم.

فحّ بكلمته، واستدار يخرج متباطئاً..

* * *

بعد هذه الحادثة بيومين، وبينما كان أبو عصام جالساً عند نايف موظف الصادر، إذ بإقبال يدخل حاملاً كيساً. قدَّمه لنايف، وانسحب دون أن يرفع بصره بوجه أبي عصام:

ـ ما هذا؟!

نبس أبو عصام يسأل. أجاب نايف:

ـ سندويش.

فارتسمت الدهشة على وجه أبي عصام، ولكن نايف أكمل:

ـ يعجبني أبو متعب! ملعون.. استقدم إقبال على كفالته من

الباكستان، يعطيه خمسين ديناراً في الشهر، ويقبض هو خمسمائة دينار من الوزارة..

ظلَّ أبو عصام ودهشته، وصوت نايف:

ـ ولكن إقبال طيّب.. طوال اليوم يخدم الجميع..

انتبه نايف إلى سكوت أبي عصام، فسكت هو بدوره، وبعد برهة أفلت يخاطب أبا عصام مادًّاً يده بالكيس:

ـ تفضّل! أتأكل معي؟!

* * *

في نهاية الدوام، وبينما أبو عصام متّجهٌ لسيارته في الموقف، شاهد إقبال واقفاً ينتظر. قبل أن يخرج من الموقف، تقابل مع أبي متعب داخلاً يقود سيارته «التاكسي»:

ـ ابن الحرام!!

قالها وأكمل بسيارته.

كانت إشارة الموقف الضوئية حمراء، عندما حاذى أبو متعب بسيارته سيارة أبي عصام، وراح يؤشّر له، أنزل أبو عصام زجاج نافذته، فرفع أبو متعب يده بتحيته العسكرية مبتسماً، وصوته:

ـ مسّاك الله بالخير يا طويل العمر..

لحظتها فتحت الإشارة..

(٢) منتشياً يتحرَّك..

أعلنت الشركة عن حاجتها لصبيّ شاي وقهوة، وبعد ثلاثة أيام تجمَّع لديها ملفّ يحوي طلبات راغبي العمل. خلافاً لجميع الطلبات التي كانت لعمالة عربية أو آسيوية، استوقف المديرة الإدارية: الآنسة فاتن، ابنة صاحب الشركة، طلب السيد/عايض متعب.. راحت تدقّق في صورته، غترته وعقاله، ولحيته الصغيرة، ونظراته الحادّة.

طلبت سكرتيرتها. ناولتها طلب العمل و:

ـ اتّصلي بصاحب هذا الطلب، وليحضر لمقابلتي في الخامسة مساء..

* * *

كانت الآنسة فاتن تتكلّم في التلفون مع إحدى صديقاتها عندما استأذنتها السكرتيرة الدخول و:

ـ تفضّلي!

ارتفع صوت فاتن. دخلت السكرتيرة و:

ـ الرجل صاحب الطلب موجود..

نظرت فاتن للساعة المذهّبة التي أمامها و:

ـ لينتظر ريثما أطلبه..

* * *

انفتح الباب. ظهر أبو متعب. للوهلة الأولى تراءى لفاتن أنه قصير:

ـ مسّاكِ الله بالخير يا بنت الأجاويد..

قال جملته مركِّزاً نظره، على وجهها، رافعاً يده اليمنى، حيث استقرَّت أصابعه المضمومة وبشكل مائل قرب صدغه..

ـ أهلاً وسهلاً

لفت نظر فاتن أسنانه الصفراء المتناثرة، وطريقة كلامه، وللحظة حضرت بها ضحكتها. أشارت له بالتقدّم و:

ـ تفضّل!

ـ ما خاب من شاهد هذا الوجه الطيّب..

قال جملته قبل أن يجلس، فارتسمت ابتسامة فاتن على وجهها وأفلتت:

ـ شكراً..

جلس قبالتها هادئاً، بينما راح يعبث بحبَّات مسبحته بصمت. بدا لها واثقاً من نفسه، لحيته المحنّاة، وحركة لسانه التي لا تهدأ، وما إن التقت عيناهما حتى بادرها:

ـ حيَّا الله وجه الخير..

حبست هي ضحكة تلحّ عليها، وأجابته:

ـ أهلاً وسهلاً.. ما اسمك حجي؟!

ـ أبو متعب طال عمركِ.

ـ أتعرف طبيعة العمل المطلوب؟!

ـ نعم يا طويلة العمر..

عادت تنظر إليه، فعادت ضحكتها تنقر عليها، وصوته:

ـ المطلوب عامل شاي وقهوة..

ـ نعم..

أشارت برأسها و:

ـ والراتب..

قالت كلمتها، فأحسّت أن رغبتها في الضحك قد انحسرت..

ـ كما تشائين يا بنت الأكابر.

ـ عندك أسرة؟!

ـ ثلاث نساء..

ـ ماذا؟!

شهقت بضحكتها هي، فأضاف بزهوّ هو:

ـ نعم يا بنتي.. ثلاث.. الثالثة تزوّجتها قبل شهر..

ـ طيّب حجي.. سنعطيك راتباً شهرياً قدره مائة وخمسون ديناراً..

ظلَّ ينظر إليها، مرَّت فترة صمت بينهما، وصوته:

ـ بل مئتان يا طويلة العمر!!

رفعت نظرها إليه، فأكمل:

ـ للقديمات مائة، وللجديدة مائة . .

انفجرت تضحك. مدّت يدها لتتناول ورقة كلينكس، تجفّف دموعها و:

ـ طيّب حجّي . .

وتخاطب سكرتيرتها. ارتفع صوتها:

ـ سهير . .

ـ نعم .

أجابت السكرتيرة عبر جهاز التلفون الداخلي:

ـ تعالي لو سمحتِ . . .

ـ حاضر . .

دخلت السكرتيرة، فناولتها فاتن الطلب و:

ـ اعملوا للحجّي أبي متعب أمر تعيين . .

والتفتت تكلّم أبا متعب:

ـ متى تبدأ العمل؟!

ـ الآن طال عمركِ . .

وثانية عادت تخاطب السكرتيرة:

ـ ابتداء من الغد . .

ـ تفضّل!!

أشارت له أن يتبع السكرتيرة. نهض من مقعده. رفع لها يده بتحيته العسكرية، مركّزاً عينيه في عينيها و:

ـ مشكوره، طال عمركِ

* * *

بعد مرور أكثر من أسبوع على دوام أبي متعب في الشركة لاحظت فاتن أن هناك شاباً يبدو عليه أنه هندي، بدأ يظهر بالقرب من أبي متعب دائماً. طلبت السكرتيرة لتستفسر منها، وصوت الأخيرة:

ـ لا أعلم. أشاهدهما معاً طوال اليوم، وفي نهاية الدوام يغادران معاً . .

بعد فترة أخبرت السكرتيرة، الآنسة فاتن أن أبا متعب لم يعد يُداوم، وأن الشاب الهندي هو الذي يعمل كل شيء . .

ـ ما اسمه؟

ـ راجو!

ظلّت فاتن ساكتة، فأضافت السكرتيرة:

ـ عفواً آنسة فاتن . . الشاب الهندي أنظف من أبي متعب . .

هزّت الآنسة فاتن رأسها، وصوت السكرتيرة:

ـ كما أنه يتكلّم الانجليزية . .

ولم تعلّق فاتن . .

* * *

الثامنة والنصف صباحاً. الآنسة فاتن تصل إلى الشركة. تدخل فيقابلها أبو متعب في الممرّ:

ـ صبّحكِ الله بالخير يا طويلة العمر . .

صبّحها رافعاً يده اليمنى بتحيته العسكرية ذاتها و:

ـ أهلاً . . صباح النور . .

ردّت عليه، وأكملت طريقها لمكتبها. بعد مرور فترة دخل عليها أبو متعب حاملاً الصينية وعليها النسكافيه. اقترب بحذر من المكتب. وضع الكوب، واستدار ليخرج، وصوت فاتن:

ـ منذ مدّة لا نراك . .

ـ أنا تحت أمركِ يا طويلة العمر . .

رفع بصره إليها فرآها تنظر إليه فأضاف وجلاً:

ـ هل قصّر راجو بأي شيء؟!

ـ كلاّ . .

ردّت فاتن. بقي هو متسمّراً في مكانه، وصوت فاتن مهادناً:

ـ راجو ولد جيّد . .

جملة فاتن تدخل السرور إلى قلبه. يتحرّك. يهمّ أن يخرج، وصوتها مرّة ثانية:

ـ مشكور . .

ومنتشياً يتحرّك . .

(٣) رويداً أكمل طريقه . .

ـ صبّحك الله بالخير يا طويل العمر.

رفع أبو متعب يده بتحيته العسكرية، يحيّي مدير الإدارة، وظلّ واقفاً في مكانه:

ـ تفضّل بو متعب . .

وصله صوت أبي متعب. خطا أبو متعب بوجل. «. . ماذا تراه يريد منّي؟! اللهم اجعله خيراً. . ليس وراء هذا الوجه إلاّ المصائب . .» أسرّ أبو متعب لنفسه. بينما راح يختلس النظر لأبي سعود الذي بدا مشغولاً بترتيب بعض الأوراق على مكتبه و:

ـ حيّا الله أبو متعب.

انطلق صوت أبو سعود يحيّي أبا متعب دون أن يرفع بصره إليه:

ـ تحيا وتدوم يا طويل العمر.

«. . يُحيّيني بهذه الطريقة!! يا الله سترك . .» رنّ التلفون، وصوت «أبو سعود»:

ـ الو!

ـ . . . .

ـ أهلاً . . أهلاً . . يا مرحبا.

ـ . . . .

ـ بخير . .

رأى أبو متعب كيف أن ملامح أبي سعود قد تهلّلت. «مع مَنْ يتكلّم؟! . . لا بدّ أن يكون مسؤولاً مثله. .»

ـ نعم.

ـ . . .

ـ حاضر طال عمرك.

ـ . . .

ـ تأمر. .

ـ . . .

ـ الليلة سيكون معي.

«شغل سهرات. .»

ـ حاضر. .

ـ . . .

ـ الله يسلّمك.

أنهى أبو سعود المكالمة فعادت لأبي متعب هواجسه:

ـ أبو متعب. .

قالها أبو سعود، وعاد ينشغل بأوراقه.

وحدها حبّات مسبحة أبي متعب كانت تتحرّك بهدوء. اعتدل أبو سعود في جلسته و:

ـ المدام. . . تحتاج لسائق خاص لها يا أبا متعب. .

ظلّ أبو متعب ينظر في وجهه:

ـ نريد سائقاً ممتازاً. . وأميناً. .

لم يعرف أبو متعب بماذا عليه أن يردّ، وصوت أبي سعود:

ـ لماذا أنت ساكت؟!

ـ أبداً يا طويل العمر. .

ـ سيكون اسمك ضمن كشوف العلاوات القادمة. .

ـ مشكور يا طويل العمر.

ـ تأخذه رأساً إلى البيت، ويبقى عندنا. .

صار كل شيء واضحاً الآن لأبي متعب. «. . يريد سائق لزوجته على حسابي. . ابن الكلب. . يغضّ النظر عن عدم حضوري هنا، وأنا أرتّب له سائقاً لزوجته. .»

ـ متى سيكون السائق عندنا؟!

ارتفع صوت أبي سعود:

ـ حاضر طال عمرك.

ـ اليوم العصر.

ـ إن شاء الله.

ـ حسناً. . لديّ اجتماع الآن. .

أبو متعب ينهض. يرفع يده بتحيته العسكرية و:

ـ السلام غليكم. .

ـ هلا أبو متعب. .

تحرّك أبو متعب صوب الباب، وصوت أبي سعود:

ـ لا تنس. . نريده أميناً. .

ـ حاضر طال عمرك. .

وبُهدوء أكمل أبو متعب طريقه. .

(٤) بسلامة أبي متعب. .

الثانية ظهراً. ركب آخر المجموعة. أغلق الباب خلفه، فانطلق أبو متعب بسيارته التاكسي. أعظم وإقبال جلسا بجواره، بينما جلس كل من راجو ونواز وخان، في المقعد الخلفي. . «. . إقبال خمسون، وأعظم خمسون = مائة. . راجو ونواز. . مائة ثانية، وخان خمسون. . يصبح المجموع مئتين وخمسين ديناراً. . يجب أن أُرسل أنطون لبيت ابن الكلب:

ـ المدام تحتاج لسائق خاص. . يُلعن أبوك على أبي المدام. .

كان أبو متعب يحدّث نفسه، بينما تعالت الرطانة تملأ جوّ السيارة المنطلقة. .

* * *

توقّف أبو متعب بسيارته قبالة المطعم الباكستاني، كعادته كل يوم:

ـ هيّا. .

التفت يخاطب راجو. .

ـ . . .

هزّ راجو رأسه غير مكترثٍ، بينما راح يتفاهم وزملاءه بخصوص غدائهم. .

ـ هيّا يا راجو!!

كرّر أبو متعب بانزعاج. فتح راجو الباب وترجّل، فعاد أبو متعب لحسابه. . (إقبال وأعظم. . مائة. . راجو ونواز وخان. . مائة وخمسون. . هذه مئتان وخمسون. . وأنطون خمسون. . يصبح المجموع ثلاثمائة دينار. . سبعمائة وخمسون من الوزارة، وثلاثمائة وخمسون، ومئتان من الشركة. . ألف وثلاثمائة. . مائة وخمسون من البنك، وثلاثمائة. . بل لنقل مئتان من السيارة. . يصبح المجموع الكلّي. . ألفاً وثلاثمائة، ومائة وخمس. .)

أغلق راجو الباب خلفه، فقطع على أبي متعب حسابه. . التفت أبو متعب إلى حيث يجلس راجو، كما لو أنه أراد التأكّد منه. أبصره، فأدار المحرّك. انطلقت السيارة، وثانية عادت الرطانة مخلوطة برائحة الأكل. .

* * *

(. . أدفع لهم مرتبات. . ثلاثمائة دينار. . أستلم. . سبعمائة وخمسين، وثلاثمائة وخمسين. . ألف ومائة، ومائتين. . ألف وثلاثمائة، ومائة وخمسين من البنك. . ألف وأربعمائة وخمسين. .)

وحده أبو متعب كان منشغلاً في حساباته، بينما انهمك الجميع في الأكل وسط رطانة مرحة. ضحك نواز عالياً فكاد أن يغصّ بلقمته. اهتزّ يسعل. عمّ الضحك الجميع. انتبه أبو متعب، فصرخ بهم:

- مهدوء يا كلاب!

لم يلق ردّاً من أحد، فعاد لحسابه.. (.. ألف وأربعمائة وخمسون.. حيوانات أنسوني إلى أين وصلت.. أبدأ من الأول.. ثلاثمائة لهؤلاء الزفت.. سبعمائة وخمسون، وثلاثمائة وخمسون.. ألف ومائة، ومائتان.. ألف وثلاثمائة.. ومائة وخمسون من البنك.. ألف وأربعمائة وخمسون، ومائتان من السيارة.. المجموع الكلّي.. ألف وستمائة وخمسون ديناراً.. نخسر منها ثلاثمائة دينار.. يتبقّى ألف وثلاثمائة وخمسون ديناراً شهرياً..) أطلق زفرة كما لو أن حملاً ثقيلاً يرزح على صدره (.. ثلاثمائة دينار أصرف عليهم كل شهر.. عساهم بالماحي..) التفت إليهم، ما زالوا يأكلون، وبينه وبين نفسه ردّد (.. كلوا عساه بالسمّ الهاري..)، وغير مبال أكمل طريقه..

(الكويت)

يوميات سراب عفّان

مهما تتعدّد المواضيع في هذه الرواية، فإنها أساساً قصة حب. ولكن الحب هنا من نوع غير عادي: عنيف، وقاسٍ، وكثير التأمّل في الذات.

وسراب عفّان ستثبت أنها امرأة غير عادية، فتجد أن حبّاً كهذا لا بدّ أن يكون مغامرة خطرة في أكثر من اتجاه، إذا كانت تبغي خلاصاً لنفسها، ولغيرها.

ونائل عمران، الرجل الذي يفاجأ بهذا العشق، سيذهل حتى الألم لما حرّك في سراب من طاقة هائلة، وحيوية أخضعت العقل والجسد لإرادتها، تحقيقاً لإنسانيتها وحرية قرارها.

وهي قد تصرّ على أن تمازج بين واقعها وخيالها، أشبه بممثّلة تقمّصت دوراً على المسرح، وخرجت إلى الطريق وهي مستمرّة في دورها، إلى أن تحوّل وهمها إلى حقيقة.

لقد أضاف جبرا ابراهيم جبرا، بروايته الجديدة هذه، امرأة متفرّدة أخرى إلى الشخصيات النسائية المتميّزة التي صوّرها في رواياته السابقة.

رواية

جبرا ابراهيم جبرا

دار الآداب